

دور المدرسة الاستعمارية في الاستيلاء

الحضاري

د / عبد الله بوقرن

جامعة منتوري - قسنطينة

الإشكالية :

إن أهم أداة إعتمدها المستعمر للقضاء على الهوية الوطنية وإحلال الفرنسية مكانها هو تأسيس مشروع تربوي إستدماري كان يهدف للقضاء على النموذج المحلي كخطوة أولى لوضع نظامه الذي من أهم طموحاته التغريب والتنصير والفرنسية، وبالتالي إلحاق الجزائر بفرنسا كخطوة ثانية.

والسؤال الملح هنا من صاحب نظرية هذا المشروع ؟. وما هي أدواته
ووسائله وبالتالي أهم المناطق التي ركز فيها هذه العملية، أي ما هي الظروف
والملايسات التي إستغلتها لتحسيد المشروع ؟.

تمهيد : نوعية التعليم في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي

من المتفق عليه - في تاريخ الجزائر الحديث - إنتشار التعليم بالجزائر
إنتشارا واسعا، بحيث لم يقتصر تواجده على العاصمة أو المدن الكبرى بل تعداه
إلى أقاصي الأرياف وأعلي الجبال وأعماق الصحراء وذلك كتقليد إجتماعي
نابع من صميم العقيدة الإسلامية السمحة التي تجعل من التعليم عبادة : " طلب

العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " وقوله تعالى في أول آية نزلت على نبيه الكريم : " اقرأ ... " .

إنطلاقاً من هذه الخلفية الدينية للتعليم والتي تضرب بجذورها في أعماق عقيدة الإنسان المسلم وتقاليده إعتد التعليم في الجزائر على مجهودات المواطنين وقد سهر الآباء بأنفسهم على تعليم أبنائهم وخلاف ما روجه الإستعمار، فإن الجزائري قبل الغزو الفرنسي لم يكن بحاجة إلى مساعدة أبنائه له في مختلف أنشطة اليومية، كما كان الحال عند بعض الأقوام والشعوب (الهند مثلاً ...) وخاصة في هذه السن المبكرة، وبالتالي فقد عمل (الآباء) على دفع أبنائهم وتوجيههم نحو التعليم، وقد تميز الجزائري في هذه الفترة بتمسكه بدينه والعمل بتعاليمه .

أما السبب الأهم فيرجع إلى وجود مؤسسات خيرية قائمة بذاتها وهي " الأوقاف " وأملاك الزوايا والتي كانت توجه خصيصاً للإبقاء بهذا الغرض (وهي مؤسسات خيرية مستقلة عن الدولة التركية تعتمد أساساً على ريع ممتلكاتها وعلى الزكاة والصدقات ومجهودات المتطوعين) .

هدم مقومات الشخصية الوطنية (لغة ... دين) ثم الفرنسية والتنصير

المدخل : لم يكن من السهل على فرنسا الإستعمارية — بعد سقوط مدينة الجزائر — أن تبسط نفوذها داخل البلاد لذلك لم تفكر في سياسة تعليمية بقدر إهتمامها في وضع سياسة إستيطانية مدعومة بخطط حربية تستهدف القضاء على المقاومة والغليان الشعبي وإخضاع السكان الجزائريين بمختلف الوسائل، لذلك إعتمدت سياسة الترهيب والتدمير والتخريب لكل المؤسسات على إختلافها أو

تنوعها بدءا بالمسجد والكتاب والزاوية وحتى المدارس الصغرى وعمدت إلى قتل وتشريد القائمين عليها، وتشجيت التلاميذ وشل نشاط الزوايا أو تحويله إلى صالح المستعمر، حتى تتمكن من تحويل أغلبية المساجد إلى كنائس وحتى إلى مرقد للجيش أو إسطبلات للخيل. بمعنى أنها عملت على تجهيل وتهدم ما يحمله الفرد الجزائري من لغة أو دين ليتسنى له دفعه كالقطيع، إلا أنه ومع إشتداد المقاومة للإحتلال وخاصة وأن أغلب زعمائها هم رجال المؤسسات التعليمية مما نبه الإستعمار إلى أهمية التعليم والتربية كمرجعية حضارية تاريخية تضرب بجذورها في عمق الكيان الجزائري وتبلور هويته وانتمائه وتحافظ على تماسك الوطن وصيانة وحدته وتضامن أبنائه في السراء والضراء، وهو الأمر الذي أزعج الإستعمار وحرك عزمته للتصدي لهذه القوة الداخلية التي منبعها في الأساس الدين الإسلامي.

وعليه إقتنعت فرنسا بأن قوة المدفعية لن تجديها نفعا وأن تحقيق الإستيطان في الجزائر ليس سهلا فبدأت تنظر وترسم الخطط للإطاحة بشعب أعزل لكن إقتناعها بأن في داخل كل فرد من القناعة والإيمان والغيرة على الدين واللغة والوطن ما يمكن أن يحول كل جزائري إلى مدفع في وجه فرنسا، هذا التحليل من فرنسا دفعها إذن إلى ضرورة وضع سياسة تعليمية فرنسية تعتمد عليها جنبا على جنب مع القوة العسكرية الإستيطانية وذلك بغية القضاء على عناصر القوة في الإنسان الجزائري، وزرع بذور الإستعباد التي سوف تتركز عليها لإذلاله والعبث به، وذلك بالقضاء أولا على الهوية العربية الإسلامية وتنصيره وفرنسته واجتثاثه من جذوره وتحطيم إنتمائه العربي الإسلامي وهو السلاح الذي أفقد ساسة فرنسا رشدهم.

الإستنتاج : لا يمكن الفصل بين السياسة التعليمية الفرنسية والسياسة الإستيطانية في الجزائر .

أهداف السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر

المهدف الأول : القضاء على النموذج التربوي المحلي والذي كان سائدا قبل الغزو، حيث تفتن الغزاة — كما أشرنا سابقا — إلى الدور الفعال الذي كانت تلعبه الزوايا في مقاومتهم وفي الوقت ذاته الدور الذي لعبته في محاولة المحافظة على هوية المجتمع الجزائري، لذلك كانت الخطة التدميرية التخريبية الهمجية تتمثل في العمل على تجهيل الشعب الجزائري بقتل وتهجير القائمين على التعليم، وتهدم المرافق الخاصة بهم، وفي هذا السياق يقول الكاتب الجزائري مصطفى الأشرف نقلا عن النقيب " ريشارد " الذي قال في إفتتاحية دراساته : " فلا نرى مانعا من أن يكون مآل هذه المؤسسات ويقصد بها المساجد والزوايا والكتاتيب إلى الخراب، وأن يرجع الشعب العربي إلى عهود الجهالة الأولى، وعندئذ سوف يتأتى لنا أن نعلمه شيئا وأن نكسبه على صفنا عن طريق التربية " (1).

إذن فرأي هذا الضابط واضح هو تسخير التربية والتعليم لخدمة المشروع الإستعماري، فمادام المتعلم الجزائري يقاوم الإستعمار أو يحافظ على هويته العربية الإسلامية فيجب على السلطات الإستعمارية — في نظر هذا الضابط — أن تقوم بتصفية الموارد البشرية والمنشآت المادية الخاصة بالتعليم والثقافة لتجهيل

(1) — محمد الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة الدكتور حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 338.

الشعب الجزائري بهدف تسهيل إستبعاده لأن المثقف لا يمكن إستبعاده كما يقول " الرئيس الراحل هواري بومدين " وهو ما وقع بالفعل ، لأن الظابط يضيف قائلا : " إننا عندئذ نقوم بإعادة تعليمه بكيفية تسمح لنا بتهجينه، بحيث يصبح خاضعا لنا أولا وفي الوقت ذاته متقبلا للتنازل عن هويته ولاندماج في المجتمع الفرنسي، لهذا لانستغرب عندما نطلع على مقولة الدوق دي أومال التي جاءت في خضم التدمير الشامل للمجتمع الجزائري حيث يقول : " إن فتح مدرسة فرنسية في أوساط لأهالي تعادل معركة عسكرية من أجل إستتباب الأمن في أوساطهم والإستقرار في الجزائر كافة، كما أنها في نهاية المطاف تهدف إلى تحقيق القناعة في أوساطهم بمشروعية الإحتلال وتعزيز سيادة المستعمر " (1).

من هذه المقولة أن إقامة النموذج التربوي للإستعماري كان يجب أن يقوم على أنقاض النموذج المحلي، أي تعميم جهود التدمير والتغريب حتى يتسنى ضرب المجتمع الجزائري في صميم هويته بهدف تحويله إلى جماعة من البشر لاتماسك ولاتناظم فيما بينها ولاترابط بين أفرادها، حيث تصبح كالقطيع يسهل توجيهه ، وفي هذا السياق يقول مالك بن نبي : " إن أي مجتمع يصاب في صميم علاقاته الإجتماعية تختل صورته الحضارية وتشل إرادته الجماعية وتصبح عاجزة عن أداء أي عمل مشترك " (2).

(1) — عبدالله حمادي، الحركة الطلابية الجزائرية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر ط2، 1995، ص 12.

(2) — مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبدالصبور شاهين، دار الفكر، طرابلس، لبنان 1974 ص 39 ، 40.

وهو الهدف الذي سعى إليه الإستعمار لتفكيك بنية المجتمع الجزائري الذي كان موحدًا ومتماسكًا ومقاومًا للعدو وملتفا حول قاداته المتزعمين للمقاومة خاصة رجال العلم والدين، الذين طالما رفعوا لواء الجهاد وتصدرو الصفوف لنيل الشهادة بعد أن أعطوا دروسًا لاتنسى في التضحية والنضال من أجل الحرية والوطن، وهو الأمر الذي جعل قادة الإستعمار يحقدون على المتدينين والمتعلمين ويصفونهم بأنهم أعتى الأعداء لفرنسا، وبالتالي وجبت تصفيتهم جسديًا وسلب وحرق وثائقهم ومكتباتهم وكل ما يمت بصلة للتعليم والتدين الثوريين.

ويجدر بنا التذكير أن مفتشًا للتعليم الفرنسي (لوبتشو) قد شهد على تلك الجرائم التي قامت بها بلاده في حق التعليم العربي الإسلامي بما حين قال : " كم من كتاب دمر وتشتت من جراء الإحتلالات المتعددة للمساجد، إن المخطوطات التي يعتمد عليها في التعليم حرقت ومؤسساته دمرت، ولم يبق هناك شئ يذكر ... " (1).

إن هذا القول لعمرى شهادة أخرى تؤكد أن الجرائم لم تكن أمية ولا همجية متوحشة وأن فرنسا جاءت لتحضيرها، بل الحقيقة أن الجزائر وعلى الرغم من التخلف الحضاري العام الذي كانت تعاني منه كباقي الأقطار العربية من جراء إنحصار الإشعاع الحضاري وتوقعه بسبب نكسة الأندلس والمد الصليبي المسيحي المتنامي بحيث أعطيت الأولوية للجهاد البحري على حساب إزدهار

(1) — عبدالله بوقرون، الهوية في الفكر الجزائري الحديث، رسالة ماجستير في الفلسفة ، ص

العلم والثقافة (في العهد العثماني) كانت تقرأ وتكتب، وكان التعليم فيها منتشرا رغم مساوئ الحفظ والتلقين والتكرار — واسع الانتشار، يشمل خاصة العلوم الدينية واللغوية والفلسفية والرياضية، والطبية الموروثة من عهود المغرب الأوسط الزاهر بعواصم الثقافة الكبرى، كتلمسان، بجاية، قسنطينة، وتيهرت ... إلخ.

وإذا تساءلنا لماذا فعل الإستعمار ذلك، أي لماذا قضى على وسائل وأدوات التعليم في الوقت الذي إدعى أنه جاء لتحضير مجتمع همجي وأمي ؟ !.

كان الجواب : أن الإستعمار كان يهدف إلى طمس معالم الشخصية الجزائرية بمختلف الطرق والأساليب بدون مراعاة للأضرار النفسية للجزائريين وقد إعتد كما قال "ميكيافيلي" على أن : " الغاية تبرر الوسيلة " وبالتأكيد أن غاية الإحتلال ليست تحضير الجزائريين بل هو البحث عن سبل إقتيادهم والسيطرة عليهم وجعلهم في خدمة مصالحه، وكانت من أجل ذلك إعتماده على خطط مدروسة وضعها منظره " جون فيري " الذي كانت فلسفته تتمحور حول ضرورة خواء النفوس وغسيل العقول لتكتب فيها — بعد ذلك فرنسا — ما يحلوها وما ترغب في كتابته من أجل خدمة مصلحتها العليا وهي تحقيق الإستيطان !.

ولما كان (محو الهوية) هو الخطوة الأولى في سلم سياسة الإستيطان كان لزاما عليه البدء بتهديم عناصرها الأساسية عنصرا عنصرا، ولما أدرك الفرنسيون أن التعليم هو أساس الدين، وأن الدين أساسه الوحدة الوطنية وسبب التضحية

والجهاد والمقاومة، فقد عمد إلى نسف هذه العناصر عنصرا وراء آخر وبالتالي القضاء على أساس القوة.

وهكذا ... وبعد طمس مختلف أوجه شخصية الفرد الجزائري وبعد أن جهلته لعشرات السنين ومارست على نفسيته مختلف أساليب التعذيب والتنكيل والغزو الثقافي وهزمته نفسيا وثقافيا وجسديا راحت تمارس عليه سياسة أخرى تمثلت في غرس عناصرها الثقافية وبالتالي إحاكة ونسج شخصية إنسان جزائري حسب السوق أو الطلب الفرنسي، فراحت تبني وتنشئ المدارس وأول ما عمدت، إلى تشجيع التعليم الديني المسيحي وهو الدين الذي كان محاربا حتى داخل محيطه الطبيعي (فرنسا).

وقد إعتمد في سبيل ذلك جمعيات ذات طابع فلسفي كان نشاطها ممنوعا حتى داخل فرنسا، تلك الجمعيات أعطى لها الضوء الأخضر في الجزائر من طرف سياسة وحكام فرنسا من أجل وضع ورسم برامج تعليمية ذات طابع ديني تهدف أساسا إلى تنصير ومسح المجتمع الجزائري كخطوة أولى لتجنيسه وفرنسته ، وقد عرفت تلك الجمعيات التي أوكلت لها مهمة القيام بهذه العملية على كل النغمات ، خاصة إعتمادها سياسة التفرقة بين السكان الجزائريين وذلك لتقصي عن مواطن الضعف والقوة وقد ذهبت على حد وضع تقارير ودراسات حول صفات وخصائص كل منطقة أو نامية من نواحي الوطن، وتوصلت في النهاية حسب " جون فيري " إلى التركيز على منطقة القبائل معتمدة قبل كل شئ في إقناع سكان المنطقة على أنهم مخلفات أجدادهم الرومان الذين عاشوا أمدا في الجزائر وأنهم هم السكان الأصليين وأنهم لا يختلفون في أصولهم التاريخية

والعرقية عن الفرنسيين وبالتالي وجب عليهم — حسب فرنسا — مساعدتها في إخضاع باقي السكان، إضافة على محاولة إقناعهم بأن دينهم القديم هو المسيحية، وأن لغتهم من اللاتينية وبالتالي ضرورة العودة إلى الجذور.

وانطلاقاً من سياسية (فرق — تسد) هذه قطع الإستعمار شوطاً، ما هي الخطة التعليمية التي إعتمدها ؟ وهل حققت هدفها ؟ وكم نسبة نجاحها ؟ !.

الهدف الثاني : إن الهدف الحقيقي من التعليم الإستعماري في الجزائر ليس تنوير العقول والقضاء على الجهل الذي عمد إلى نشره وإنما هو السعي إلى فصل الجزائر عن محيطها الطبيعي العربي الإسلامي وكذلك كان الهدف قبل كل شيء تمرير مغالطات وأكاذيب من خلال تشويه الحقائق التاريخية للجزائريين لنشر الخطاب الإستعماري الفرنسي وبالتالي تقبل الإحتلال والقضاء على المقاومة عند الأجيال التالية، ولذلك إعتمدت على فرض شروط معينة على المتعلمين وأوليائهم ومعظم هذه الشروط يدور حول فكرة طأطأة رؤوس المتعلم وأوليائه أمام ولي النعم (فرنسا) وبالتالي تقبل ما يتلقونه التلاميذ من أكاذيب في مدراسهم بدون مقاطعة أو إحتجاج.

فراحت تفهمهم المدارس الفرنسية بأن الجزائر ليس لها إئتماء حضاري إلا روما الأصل، أما العرب والأتراك فهم دخلاء واستعماريون، ثم أن الأفق الإسلامي مظلم وأن المستقبل والحضارة يكون بالإرتباط بفرنسا المخلص من التخلف .

وهكذا أظهر المشرع التربوي التنصيري البناء في الوقت الذي أضمر فيه
وهدف إلى الهدم، وبدلاً من أن يكون هدف تربويًا وتعليميًا (ترقية الإنسان
وتطوير ملكاته وتفتيحها) فقد سعى من خلال خطابه الأيديولوجي على غرس
مرض نفسي قاتل هو (الشعور بالإهزام الحضاري) هذا الشعور الذي راحت
فرنسا تنشره بين النشء الجزائري من خلال وضعها لبرامج تعليمية لخدمتها
والدليل على ذلك تلك التعليمات الموجهة إلى المعلمين الفرنسيين المكلفين
بالتدريس : " ليست مدرسة الأهالي مجرد إطار للغة والتخاطب بالفرنسية بل
هي مجال للتأثير على العقول والعمل قدر الإمكان على تحررها ومساعدتها على
التمثل الذهني للثقافة الأوربية، ليس الهدف فرنسة هؤلاء الرجال، بل الغرض هو
تمكينهم من الوسائل الكفيلة بتقريبهم من الفرنسيين، وفي الوقت نفسه العمل
على تحسين ظروفهم المعيشية حتى يدركوا مدى أهمية اللغة الفرنسية والحضارة
الغربية في تحسين ظروفهم الحياتية، لذا وباختصار يجب أن يكون مربين ومعلمين
في الوقت نفسه " (1).

نظرية جول فيري في الإدماج

يتلخص مفهوم الإدماج عند (جول فيري) باستغلال الإثنية الموجودة
بين السكان الجزائريين (أمازيغ وعرب) لذلك ركز على منطقة القبائل التي
تقع في سلسلة جبال مرتفعة وما ينطوي عليه من صعوبة التواصل مع باقي
المناطق وهو الأمر الذي أبقى على انتشار اللهجات الأمازيغية المحلية، مع إنتشار

(1) – CR. Argon Histore de L'algerie Contemporaine , P U F ,
Paris , P 165 – 166 .

الزوايا والمدارس والكتاتيب العربية الإسلامية، لذلك نجد أن خطة جون فيري إرتكزت على مقولة إستعمارية كما أوضحت وهي أن العرب والأتراك محتلين وأن الأمازيغ والبربر من أصول رومانية أوربية مسيحية، ولذلك يجب إعتبار اللغة العربية والتعاملات الإسلامية، في المحاكم الشرعية غريبة عن هذا المجتمع وبالتالي وجوب منعها ونشر بدلها اللغة الفرنسية والدين المسيحي والعرف المحلي، وبهذه الكيفية يسهل تغريب هذه المنطقة، وبما أن المستوطنين يرفضون تعليم الأهالي بحجة قلة الميزانية المخصصة فإن جون فيري قام بدور كبير من أجل إنشاء خمسة عشر مدرسة مرتبطة بالوزارة المركزية في باريس لكي يتجاوز معارضة المجالس البلدية المحلية التي تتكون من المستوطنين الأوربيين الذين يرفضون تعليم الأهالي بل يهدفون إلى إستبعادهم فقط مع العلم أن جون فيري قد إقترح على الحكومة الفرنسية التي كان عضو فيها تحمل كل الأعباء بما في ذلك إختيار المدرسين الأكفاء للإشراف على هذه العملية شرط أن يكونوا من المتحمسين للدفاع عن نظريته الإستعمارية المرتكزة على أن (فرنسا صاحبة الرسالة الحضارية) هي الوريث الشرعي لروما وأن منطقة المغرب العربي كانت خاضعة لروما، وكانت مسيحية، ولذلك يجب طرد المستعمر العربي المسلم من أذهان هؤلاء البرابرة ذوي الأصول الرومانية، لذلك وحتى يتغلغل هؤلاء المعلمون في أوساط المجتمع القبائلي، بالإضافة إلى خبرتهم العالية في طرق التعليم يجب إخضاعهم إلى تعليمهم اللهجة القبائلية البربرية خلا مدة (ستة أشهر) لتسمح لهم بالولوج داخل المجتمع القبائلي لمعرفة التركيبة النفسية للسكان وعلاقتهم بعناصر الهوية العربية الإسلامية ليتم العمل على محو هذين العنصرين من منطقة القبائل بهدف تمرير النظرية الإستعماري القائلة (بأن العنصر القبائلي

منحدر من أصل أوروبي وغير عربي ولا مسلم) لذلك يجب عليهم تعلم الفرنسية والتدين بالمسيحية مع تسويد كل ما يمت للعرب والمسلمين بصلة فيتعلم الطفل أن النمل الأسود البطيء عربي وأن النمل الأحمر السريع فرنسي وأن التخلف من الدراسة والفوضى في العمل وعدم إحترام الوقت عربي والعكس صحيح.

إن الممعن للنظر في القول السابق الذكر، يلاحظ مجموعة من الخصائص قام عليها التعليم الإستعمار في الجزائر هي :

1 — لايهتم التعليم بالمقاييس والأهداف التربوية أو البيداغوجية المتوخاة من عملية التعليم بقدر العمل على تمرير الخطاب السياسي وبالتالي التكوين السياسي .

2 — للتعليم هدف سياسي إستعماري يتمثل في إخضاع جانب الجزائريين لفرنسا من خلال إفهامهم أن المستقبل والإزدهار إلى جانب فرنسا وبالتالي عدم مقاومة الإستعمار .

3 — إفهامهم من خلال محاولة الربط بين تعلمهم الفرنسية وتحسين ظروفهم المعيشية ضرورة الولاء لفرنسا وللغرب .

إن هذه السياسة التي إعتمد عليها التعليم تتناقض في الصميم مع مبادئ الثورة الفرنسية سواء في مبدأ الحرية أو المساواة أو الأخوة، لأنها تقوم على تشويه التاريخ والخداع، وبالتالي ممارسة نوعا من الضغوطات الذهنية التي تتنافى ومبدأ الحرية، كذلك وضع الإنسان الجزائري كخادم للأوروبيين وبالتالي نعتة بالأهلي وترتيبه في مكانة أدنى من الأوروبي .

وبالتالي فالهدف من العملية التربوية تمكين الإستعمار وتمهيد طريقه ليسهل له التحكم في البلاد والعباد، وبالتالي تناقض ظاهر هذه السياسة مع أهدافها الحقيقية التي ترمي إلى الخط من قيمة الإنسان الجزائري والسخرية والإنتقام منه.

ويؤكد هذا القول ما ذهب إليه ألفرد رامبو " لقد تم الإحتلال الأول بقوة السلام وانتهى عام 1871 بترع السلاح من القبائل ويتضمن الثاني قبول إدارتنا وعدالتنا من قبل أهل البلاد، أما الثالث فسيتم من خلال المدرسة فالإحتلال سيؤكد تسلطه على اللغة بمختلف لهجاتها المحلية، وإدخال الفكرة التي تحملها نحو أنفسنا عن فرنسا ودورها في العالم إلى أذهان المسلم وذلك بإبدال الجهل والأحكام المسبقة المغالية بمفاهيم أولية للعلم الأوربي الدقيق" (1).

أما الشبان الجزائريين الذين إرتبط ذويهم مصلحيا بالمستعمر واختاروا أسهل الطرق لإرضاءه رافضين إبداء المقاومة مفضلين الإستسلام، وكنتيجة عن إخلاصهم للمستعمر إستحقوا لقب (خدام فرنسا الأوفياء) الذين من خلالهم تتكون النخبة المتخرجة من المدرسة الفرنسية الرسمية أو في المدارس الكاثوليكية الحرة، نخبة تدافع عن (الجزائر المسيحية الغربية ذات الأصول الرومانية ، الجزائر الفرنسية) (2).

(1) — عبد القادر جفلول، تاريخ الجزائر الحديثة ، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت ، ط 2، 1982، ص 75.

(2) — عبدالله حمادي، المرجع السابق، ص 70.

إذن فهذه النخبة وكنتيجة للبرامج المدرسية التي تم تلقينها إياها من المدارس الفرنسية الرسمية أو الكاثوليكية والتي تتمثل في إحتقار وتقزيم كل ما له صلة بالعروبة والإسلام وفي الوقت ذاته تعظيم وتمجيد كل ما هو فرنسي غربي مسيحي.

حيث تبرز المناهج دائما المفارقة الكبيرة بين الغرب المتحضر مدنيا والقوى وغالب ماديا وعلميا ومن واقع المسلمين المتردي والمتخلف في المستوى المدني والضعيف في كسبه العلمي والمادي مما يؤدي بالملتقى الجزائري على الإنبهار بالغرب المستعمر وحضارته وبقيمه إنهارا أسدل غشاوة على ذلك العصي المتمثل إستيعاب التفرقة بين الكفرة والمسلمين الموجودة عند الفئة المقاومة من الشعب الجزائري والتي قاومت الإستيلاء الحضاري، وعلى النقيض من ذلك إنطلق هؤلاء المستلبين حضاريا في البحث عن الأسباب التي جعلت المستعمر الكافر متحضرا قويا والمسلمين متخلفين ضعافا، وقد أغشاهم الإنبهار الحاصل لديهم عن المنهج الموضوعي للبحث العلمي الذي ترجع فيه المسببات على عللها الحقيقية وقياسا بهذه الكيفية راحو يرجعون تخلف المسلمين وضعفهم على دينهم وما تفرع عنه من نظم، كما راحو يرجعون تحضر المستعمر وقوته إلى أصل منطقة الإيديولوجي والتنظيمي العلماني، وتكون لديهم من هذه النتيجة، وضع من الريبة في أن تكون الهوية العربية الإسلامية منظوية على فعالية حضارية⁽¹⁾.

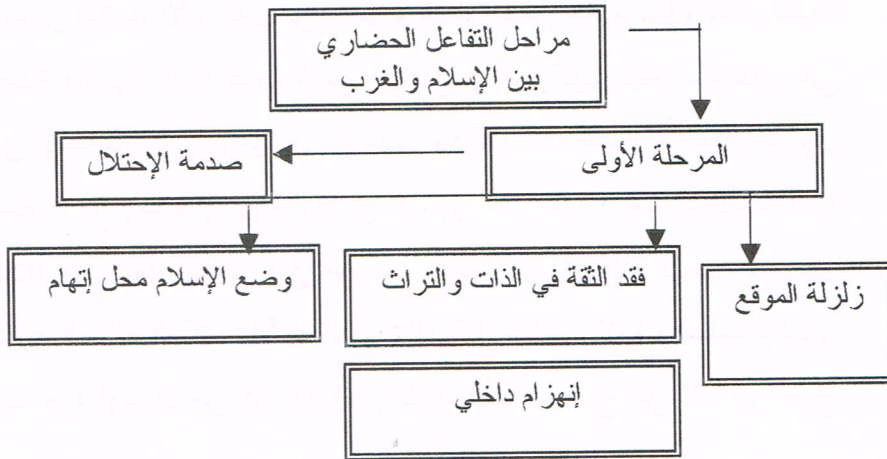
(1) — روجي غارودي، البشير الإبراهيمي مصلحا إجتماعيا، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 70، أوت 1983، ص 30.

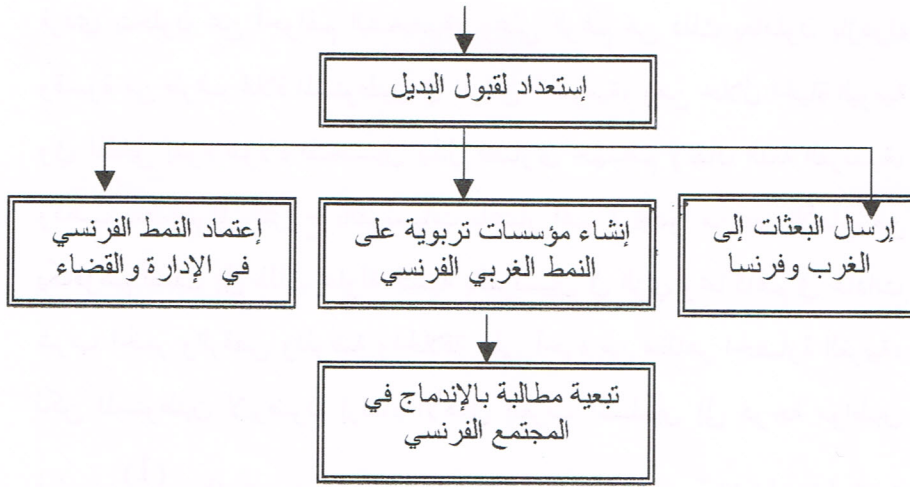
وبالتدريج أصبح الإعتقاد السائد وسط هذا الإتجاه بأن بعض عناصر الهوية العربية الإسلامية على الأقل معيقة للتحضر، وبما أنهم مستلبين حضاريا فقد ارجعوا أسباب التحضر في الأخذ بهوية المستعمر ولذلك قلدوه في كل شئ. إذن لقد إعتمدت المدرسة الفرنسية على التدليس كسياسة لتكريس الإستعمار الإستيطاني وتحقيق الولاء والخضوع وإذابة عناصر هوية الفرد الجزائري ليصبح تائها هائما لاوحدة ولا تاريخ ولا إنتماء له وبالتالي السير في فلك فرنسا كرها، وإن بدا الأمر طوعا، كما إستخدمت المنظومة التربوية في تشكيك الإنسان الجزائري في أصوله وتوظيف الأساليب العلمية الحديثة للحط من قيمة كل ما هو عربي إسلامي حتى ينشأ الطفل منذ الصغر لايعرف من القوة والعظمة والتفوق والعدل والحق إلا فرنسا والغرب والدين المسيحي وعلى النقيض من ذلك تلصق بالإسلام كل مظاهر التخلف والتعسف والظلم والجمود والعربية وصفت بأنها ميتة والعرب بأنهم دونيون ووسائلهم بدائية إنطلاقا من البيت المبني بالطوب والطين والوسائل المحلية إلى الطريق المتتوي الوعر المؤدي إلى البادية ... إلخ. وهكذا تسنى لفرنسا مسح الثقافة الأم والإساءة إليها وتحجيرها في نفوس أبنائها، الأمر الذي يولد لديهم عقدة النقص تجاه فرنسا والتكر للثقافة الأصلية والتمرد عليها نتيجة اللبس الحاصل في مداركهم نتيجة المغالطات التي عمل الإستعمار على زرعها في نفوسهم، وهكذا كان المشروع الثقافي التربوي الإستعماري الإستيطاني في الجزائر يهدف إلى خلق هذه التبعية الثقافية والدينية إنطلاقا من إنبهار الذات التي مورست عليها كل أشكال السلب والتحجير والتقزيم السالفة الذكر، بالآخر الذي يملك كل عناصر القوة والعظمة والتنوير حيث جرد الإنسان من كل خصائص الثقافة الفعالة ليصبح مثل الآلة التي تخضع

فقط للتعليمات، أما المواد القانونية والإدارية التي يتناولها هذا المعلم ليست من حقه مناقشتها، وإنما هي ذاتها مصاغة بشكل تجعل من هذا المتعلم موظفا في إدارة الإستعمار ويقوم بتطبيق التعليمات آليا، وقد توجت أهداف التربية الإستعمارية بعد القضاء على المقاومة سنة 1848 بتحقيق المشروع الإستعماري الكبير، وهو إلحاق الجزائر بفرنسا أرضا من جهة، أما شعبها فيبقى من الدرجة الثانية، أي من الرعايا، وهو الهدف الثاني الأساسي بعد الإدماج الذي سعت إليه السياسة التعليمية الفرنسية، وهو خلق عبيد لخدمة المستوطنين الغربيين.

إن هذه الإكراهية النفسية الناشئة من إستشعار الفارق الحضاري بين الغالب والمغلوب في تقدير الهوية واختلاف الآراء حولها، وهو ما يبرر خطورة التبعية، ولذلك فقد جعله ابن خلدون سنة من السنن الإجتماعية الثابتة حينما قرر أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب.

إن الشكل التالي يوضح مراحل التفاعل الحضاري بين الحضارة العربية الإسلامية والغرب المسيحي :





ملاحظة : بالنسبة للمؤسسات التربوية للنمط الفرنسي لا يحق الدخول فيها إلا لأبناء المعمارين الأوروبيين وأبناء اليهود الذين تحصلوا على الجنسية الفرنسية وأبناء الأهالي من صنف خدام فرنسا الاوفياء، والدليل على ذلك وجود نمطين من التعليم A.B.

ورغم ذلك قد بذلت النخبة المتفرنسة جهدا كبيرا لإقناع السلطات الفرنسية بأنهم " أي النخبة الجزائرية " أكثر إخلاصا لفرنسا الأم من المستوطنين الأوروبيين، واليهود الجزائريين الحاملين للجنسية الفرنسية بفعل قانون كريمو⁽¹⁾ لأن هؤلاء المعمارين لاتهمهم إلا مصالحهم الآنية والآنية في إستغلال الأهالي باعتبارهم من الرعايا الفرنسيين، علما أن المتجنسين بشكل

(1) — قانون كريمو، الذي يخص بالتحديد مسألة التجنيس الجماعي للطائفة اليهودي بالجزائر —
 وسمي بذلك نسبة على صاحب المشروع (أدولف كريمو 1796 - 1880 Cremieu
 c) وزير العدل في حكومة قامبيطا Gambita الفرنسية .

فردى يتخلون عن أحوالهم الشخصية، وعلى الرغم من ذلك يعاملون بازدراء وقسوة من طرف غلاة المستوطنين في المرافق العمومية، ومن خلال الحياة اليومية وفي المقابل يقوم هؤلاء المتجنسين ببذل قصارى جهدهم لإتقان اللغة الفرنسية، وذهب بعضهم إلى التزوج بالفرنسيات باعتبار أنهم لم يجدوا من بين الأهالي من يكافؤهم أضف إلى ذلك محاولة التشبه بالفرنسيين في الزي ومحاكاتهم في عادات شرب الخمر والرقص والموضة والحلاقة على آخره من مظاهر الحضارة الغربية، لكن المستوطنين لا يرضون إرتقاء الأهالي العرب المسلمين إلى درجة مواطنين فرنسيين⁽¹⁾، وقد عبر عن معاناة هذه الفئة أحد محرري صحيفة الحق الجزائرية بأسلوب فكاهي تحت عنوان : (لم أعد أريد أن أكون عربيا) : "فأنا رجل ذكي وكما يجب ولكن مصيبي أنني أنتمي على ذلك العرق العربي القذر، كل الناس يقولون لي ذلك في كل مكان يشعرونني به حيثما ذهبت يخاطبونني بقلة إحترام ويدفعونني بالكوع " وكأن الذكاء من خصائص الإنسان الأوربي لذلك فالأهلي عندما يشعر أنه ذكي عليه بتغيير جنسيته ومحاولة التخلص من إنتماءه للعنصر العربي القذر هذه هي الأوصاف التي ينعت بها الأهلي من أجل أن يقبل التبعية والخضوع .

ويضيف محدثنا " أن الآنسات الروميات يقطنن وجههن لرؤيته " ثم يستأنف قائلا لماذا يتحاشاني كل هؤلاء الأوروبيين رغم أنني سليم لأنني عاقل ونظيف جدا كذلك أغتسل غالبا وأبدل قميصي القطني الرقيق والمزركش مرتين في الأسبوع طربوش جديد وشعري المقصوص بالطريقة الإنجليزية لاياوي أي

(1) — جون بول سارتر، نقلا عن فرحات عباس : ليل الإستعمار، مرجع سابق ، ص 23.

طفيليات لأنه مثبت ونظيف ". ويضيف أنه يعمل بالطريقة الفرنسية في حلق ذقنه كل يوم واصفا أسنانه وعينه ولكن رغم هذه الأوصاف فمن يصدق أنه فعلا جميل، هل الأهالي الذين يحاول التملص من الانتماء إليهم أما الآنسات الروميات اللائي يقطنن جباههن لجرد رؤيته " وعلى الرغم من أنه بقيت طويلا في المدرسة حتى أنه تردد إلى الثانوية " ويضيف واصفا الأهالي بالجهل والتعصب، أما هو فهو متعلم ولم يعد يؤمن بشئ إشارة إلى من يتخلى تماما عن الدين كممارسة بل ويذهب بعيدا إلى مناقضة تعاليم الدين الإسلامي لإرضاء المستعمر، ويضيف : محمد صلى الله عليه وسلم ينهى عن شرب الكحول وأنا تناول منها حتى السكر يوميا ... مثل كل الناس الذين يحترمون أنفسهم، لحجم الخنزير أعشقه ! الصيام ولكني أدخن كل النهار وأكل في كل ساعة ... !. ورغم كل ذلك لازالوا يعاملوني كعربي ... ماذا يجب إذن أن أفعل كي أصبح روميا(1) .

يجنب آه لقد وجدتها فالمظاهر ذات تأثير حاسم إذن لا بد من تغيير المظهر، وترك الطربوش لتحل محله القبعة المستديرة والسروال الغربي اللاصق والسترة إستعماري والعصا ذات القبضة الفضية والحذاء الملمع مع تجنب مخالطة الأهالي بل وتغيير السكن بحيث لا يعرفه أحد، ولكن تغيير المظهر هل يكفي بما ان البطاقة الشخصية تحمل إسم علي أغبول ؟ " يعني علي الحمار " .

(1) — جريدة الحق : 29 جوان 06 جويلية 1912 تحت إمضاء جحا إسم مستعار نقلا عن عبدالقادر جغلل ، الإستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ، ص 75 - 77 .

ولكن بما أنني لا أريد أن أكون عربيا ولن أكون كذلك، ولذلك فسوف أقوم بالخطوة النهائية بما أنني ذكي، وبما أنني ترددت على المدرسة والثانوية، وأن السيد رئيس مصلحة الأحوال الشخصية يرغب في رؤية العرب يتحضرون ويتقربون من إخوتهم الفرنسيين سوف يؤدي لي هذه الخدمة الصغيرة عن طيبة خاطر حيث سيصبح إسمي من اليوم بيار أريول أو حتى بيار مارتان "(1).

وقد إنقسمت هذه النخبة المتفرنسة على قسمين إتجاه الأحوال الشخصية، فالذين تقبلوا الجنسية الفرنسية متخليين الشخصية واجهوا رفضا من المجموعتين، الإسلامية والفرنسية، فالأهالي كانوا ينظرون على المتجنسين على أنهم مرتدين ووصفهم بألقاب جارحة " مطورني وكافر " يعني متخلي عن جنسيته الأصلية ومتخليا عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي، ولم يقف الأهالي إتجاه المتجنسين عند هذا الحد بل قاطعهم في جميع مجالات الحياة فلا يتعاملون معهم تجاريا ولا يتصاهرون ولا يدفنون في مقابر المسلمين ولا يصلون عليهم (2).

أما في الوسط الأوربي فإن المتجنسين لم يتحصلوا على الدفء والنعيم اللذان كانا يحلمون بهما إذا ما هم حصلوا على الجنسية الفرنسية، فالمستوطنون ينظرون إليهم باحتقار ويناصبونهم العداة خوفا من منافستهم في السلطة والنفوذ، وعلى الرغم من المعاملة السلبية والسيئة التي تتلقاها هذه النخبة المتغربة

(1) — جريدة الحق : 29 جوان 06 جويلية 1912 تحت إمضاء جحا إسم مستعار نقلا عن عبدالقادر جغلول، الإستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ، مرجع سابق ، ص 77 .

(2) — أحمد توفيق لمدي : كتاب الجزائر ، مرجع ساق ، ص 328 .

فإنها أخلصت في خدمة فرنسا وخضعت للهيمنة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، حيث حققت فرنسا رغبتها في أن يصبح الصراع جزائري - جزائري مع إختلاف في المشرب حيث تجسد الفئة المتغربة المشروع الاستعماري الاستيطاني بينما تجسد النخبة العربية الغسلامية (تسميها فرنسا النخبة الأخرى) مطامح الشعب الجزائري في الاستقلال والحرية⁽¹⁾.

الإنبهار بقوة الآخر الأوروبي والإحساس بضعف الأنا

إذا نظرنا إلى العلاقة بين المستعمر والمستعمر نجدها غير متكافئة لذلك فقد أعجبت هذه الفئة بقوة المستعمر وفي الوقت ذاته أحست بضعف الأنا العربي الإسلامي وبذلك نشأ الشعور الإلزامي إزاء المد الحضاري الغربي مرتبطا بما ظن (بما عن حسن نية) وكنتيجة لجهل هذه الفئة من المستلبين حضاريا بالثقافة والحضارة العربية الإسلامية التي تجمدت فترة طويلة من الزمن⁽²⁾.

ورغم المجهودات التي قامت بها بعض الشخصيات الوطنية بهدف إسترجاع اللغة العربية والدين الإسلامي والمعاملات الحضارية ذات الطابع العربي الإسلامي، إلا أن المستلبين حضاريا قاموا بدور كبير في إثبات فشل التعريب حيث أعيدت الفرنسية للسنة الثانية إبتدائي بعدما كان المشروع الحضاري العربي الإسلامي يهدف على إلغائها من الإبتدائي فهاثيا ومساواتها مع الإنجليزية

(1) - PHILLIPE MILLET : Les jeunes Algeriens in Revue de Paris , 1913 , N° 21, P 161.

(2) — عبد الحميد بن هدوقة : الأمير عبد القادر والجاهة اللامتكافئة، مجلة الثقافة ، ص 199.

واللغات الأوروبية الأخرى، ناهيك عن مناداة بعض المتغير بين المستلين حضاريا حتى بالعودة على عطلة نهاية الأسبوع المسيحية - اليهودية (الأحد والسبت) بدلا من الخميس والجمعة، وللتدليل على ما سق يمكن أن نذكر بالتراجع الذي وقع مؤخرا في عملية التعريب وظهور من يصرح في العلن بالرغبة الملحة في تغيير عطلة الاسبوع من الجمعة إلى الأحد مذكرين بأن أحد عناصر الهوية العمودية وعمودها الفقري من مكونات التحلف لذلك إذا أردنا أن نتقدم يجب علينا أن نتمسك بمناهج الغرب .

وحتى الذين عملوا على تدريس الأمازيغية واحيائها يهدفون على ضرب العربية باعتبارها لغة تخلف ، وبما أن اللغة الوطنية الثانية قاصة والاولى كذلك في نظرهم لذلك يجب العودة إلى الفرنسية وهو ما يروج بل ويعمل على تحقيقه في أرض الميدان دعاء التعريب والفرنسة المستلين حضاريا والتنصير من خلال ما يسمى بإصلاح المنظومة التربوية.